مركز سلف للبحوث والدراسات
www.salafcenter.com

المدينة النبويّة المنوّرة
بين سلامتها من الطاعون وإصابتها بالوباء

مقال (323)

إعداد
مركز سلف للبحوث والدراسات
بمكة المكرمة

SALALFCENTER
salafcenter3@gmail.com

في أثناء أزمة كورونا كوفيد ١٩ العالمية، ومع الإجراءات الاحترازية التي اتخذتها الحكومة السعودية -وفقها الله- في سائر مدن المملكة للحد من انتشار هذا الفايروس، نال مدينةَ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم من العناية الطبية الطيبة والإجراءات الاحترازية الفائقة نصيبٌ أوفر للحد من انتشار الوباء، كما شملت تلك العناية مسجد النبي صلىٰ الله عليه وسلم وحجراته التي ضمَّت قبره وقبري صاحبيه رضي الله عنهما.

كما نال أهل المدينة أيضًا نصيبهم من الإصابة بالوباء كغيرهم من سكان مدن المملكة العربية السعودية.

وكل ذلك أشكل علىٰ البعض فقالوا: أليس رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم أخبر أن الطاعون لا يدخل المدينة؟! فكيف حصل ذلك؟!

ثم أليست المدينة محمية بالملائكة بإذن الله تعالىٰ؟! فكيف يُعمَد إلىٰ مسجد النبي صلىٰ الله عليه وسلم وقبره وروضتِه فيتمّ تعقيمها من الوباء؟!

واختلفت مآرب المستشكلين: فمنهم من فعل ذلك طلبًا للمعرفة، ومنهم من فعل ذلك طعنًا في السنة النبوية ومصادرها، والله تعالىٰ الهادي إلىٰ سواء السبيل.

وفي هذا المقال نبين الموقف العلمي الصحيح من هذه الاستشكالات.

فنبدأ أولًا بالكلام عن مدىٰ صحة الأحاديث الواردة في حفظ المدينة من الطاعون، وعن معناه في تلك الأحاديث.

أولًا: الأحاديث الواردة في حفظ الله المدينة من الطاعون:

أخرج الشيخان في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «**علىٰ أنقاب المدينة ملائكة، لا يدخلها الطاعون ولا الدجال**»[1].

---

(١) صحيح البخاري (١٨٨٠)، صحيح مسلم (١٣٧٩).

وأخرج البخاري عن أنس بن مالك، عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال: «**المدينة يأتيها الدجال، فيجد الملائكة يحرسونها، فلا يقربها الدجال ولا الطاعون إن شاء الله**»(١).

وعن أبي عبد الله القراظ أنه سمع سعد بن مالك وأبا هريرة يقولان: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «**إن المدينة مُشَبَّكَةٌ بالملائكة، علىٰ كل نقب منها ملكان يحرسانها، لا يدخلها الطاعون، ولا الدجال، مَن أرادها بسوء أذابه الله كما يذوب الملح في الماء**»(٢).

تبين لنا من مجموع هذه الأحاديث أن أصح ما ورد في عدم دخول الطاعون من الأماكن هي المدينة المنورة، ويليها ما ورد في مكة المكرمة كما سيأتي.

قال ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) بعد أن عدّد الطواعين التي حصلت منذ فجر الإسلام حتىٰ عصره: "ولم يقع بالمدينة ولا مكة طاعون قط"(٣)، وتبعه جمعٌ جم(٤)، وقد نقله النووي (ت٦٧٦) مقرًّا له(٥)، وذكر الحافظ ابن حجر نقلًا عن جماعة أن مكة دخلها الطاعون سنة (٧٤٩هـ)، بخلاف المدينة فلم يذكر أحد قط أنه وقع بها الطاعون أصلًا، إلا أنه استدرك علىٰ الجماعة القائلين بدخول الطاعون مكة بما وقع في بعض طرق حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «**المدينة ومكة محفوفتان بالملائكة، علىٰ كل نَقْب منها ملَك، لا يدخلها الدجال ولا الطاعون**»(٦)، وأجاب بأنه لم

---

(١) صحيح البخاري (٧١٣٤).

(٢) أخرجه مسلم (١٣٨٧) مختصرًا، وأشار إلىٰ بقية الحديث، وأخرجه أحمد بتمامه (١٥٩٣)، وهذا لفظه، وهو حديث صحيح.

(٣) المعارف (ص: ٦٠٢).

(٤) قاله ابن حجر في الفتح (١٠/ ١٩٠).

(٥) الأذكار (ص: ١٣٩).

(٦) أخرجه أحمد (١٠٢٦٥)، وفيه: جهالة عمر بن العلاء وأبيه، وهما من رجال تعجيل المنفعة، والحديث ضعفه ابن كثير في البداية والنهاية (١٩/ ١٨٩)، وابن الملقن في التوضيح (٢٧/ ٤٧٢)، وأورده ابن حجر في الفتح (١٠/ ١٩١) ونسبه إلىٰ عمر بن شبه، وقال: "رجاله رجال الصحيح".

يكن طاعونًا، وإنما هو وباء من الأوبئة، فظن من نقل ذلك أنه طاعون[١]، وينبه إلىٰ أن هذا التخريج الذي ذكره إنما يصحّ عند من يعتقد صحة هذا الحديث.

ثانيًا: دخول الأوبئة والأمراض إلىٰ المدينة المنورة:

ليست المدينة المنورة في مأمن من الأوبئة، وتثبت الوقائع والحوادث التاريخية أن المدينة المنورة قد حلّ بها من الأوبئة والأمراض ما حلَّ بكثير من البلدان الأخرىٰ، فهي معرضة للأمراض المعدية والفتاكة.

وقد قدم النبي صلىٰ الله عليه وسلم إلىٰ المدينة ووجدها أوبأ أرض الله، فدعا قائلًا: «**اللهم حبِّب إلينا المدينةَ كحبِّنا مكَّة أو أشدَ، اللهم بارك لنا في صاعنا وفي مدنا، وصحِّحها لنا، وانقل حماها إلىٰ الجحفة**»[٢].

ووقع بالمدينة وباء في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد أخرج الإمام البخاري عن أبي الأسود قال: أتيت المدينة وقد وقع بها مرض وهم يموتون موتًا ذريعًا، فجلست إلىٰ عمر رضي الله عنه فمرت جنازة فأثني خيرًا، فقال عمر: وجبت، ثم مر بأخرىٰ فأثني خيرًا، فقال: وجبت، ثم مر بالثالثة فأثني شرًّا، فقال: وجبت، فقلت: ما وجبت يا أمير المؤمنين؟ قال: قلت كما قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «**أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة**»، قلنا: وثلاثة؟ قال: «**وثلاثة**»، قلت: واثنان؟ قال: «**واثنان**»، ثم لم نسأله عن الواحد[٣].

ثالثًا: ما الطاعون؟

---

(١) انظر: فتح الباري (١٠/ ١٩١-١٩٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٩٨٩).

(٣) صحيح البخاري (٢٦٤٣).

تحدث الأطباء والشرعيون واللغويون عن الطاعون في وصفه وبيان حقيقته، ولهم في ذلك مسلكان:

الأول: مسلك التعميم:

ورأى أصحاب هذا المسلك أن الطاعون هو المرض العام المهلِك، وهو بهذا يشترك مع الوباء. وقد سلك هذا المسلك جمع من العلماء وأهل اللغة، وتنوعت عباراتهم في ذلك؛ فمنهم من عبر عنه بالمرض العام، ومنهم من عبر عنه بالوباء[١]. قال ابن حزم: "هو الموت الذي كثر في بعض الأوقات كثرةً خارجة عن المعهود"[٢].

وهذا المسلك هو الذي ارتضاه صاحب عون المعبود، ومال إليه الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى[٣].

والثاني: مسلك التخصيص:

وهو تعريف الطاعون بنوع خاصٍّ من الأوبئة المعدية القاتلة، وهو ما ينتج عنه القروح والبثور الجلدية، وانتفاخ الغدد وتوهّجها، وغالبًا ما تكون هذه الأورام خلف الأذن والآباط واللحوم الرخوة.

وممن سلك هذا المسلك في تعريف الطاعون: ابن عبد البر، والنووي، والقاضي عياض، وابن القيم، وابن حجر العسقلاني[٤]، والأطباء من المتقدمين كابن سينا[٥]، وهو الذي تقرّره منظَّمة الصحة العالمية[١].

---

(١) انظر: النهاية (٣/ ١٢٧)، لسان العرب (١٣/ ٢٦٧)، المفهم (٣/ ٧٥٧)، عمدة القاري (٥/ ١٧١).

(٢) المحلىٰ (٣/ ٤٠٣).

(٣) انظر: عون المعبود (٨/ ٢٥٥)، شرح رياض الصالحين (٣/ ٥٦٩).

(٤) انظر: الاستذكار (٣/ ٦٨)، تهذيب الأسماء واللغات (٣/ ١٨٧)، إكمال المعلم (٧/ ١٣٢)، الطب النبوي (ص: ٣١)، فتح الباري (١٠/ ١٨٠)، الأحكام الفقهية المتعلقة بالوباء والطاعون (ص: ٣-٤).

(٥) انظر: القانون في الطب (١/ ١٠٨)، الطب النبوي لابن القيم (ص: ٣٠).

وهذا هو الراجح؛ ويؤيده ما جاء في بعض الروايات من ذكر إصابتهم بالجروح، وفي بعضها تورم الغدد وانتفاخها، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «**لا تفنىٰ أمتي إلا بالطعن والطاعون**»، قلت: يا رسول الله، هذا الطعن قد عرفناه، فما الطاعون؟ قال: «**غدة كغدة البعير، المقيم بها كالشهيد، والفار منها كالفار من الزحف**»[٢].

فهذا تفسير رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، ولا يخفىٰ أنَّ أبينَ بيان وأعظمَ شرح للسنة هو بيانها وشرحها بسنة أخرىٰ، فلا ينبغي أن يُعدل عن بيان رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم إلىٰ بيان غيره.

وفي حديث العرباض بن سارية: «**يختصم الشهداء والمتوفون علىٰ فرشهم إلىٰ ربنا عز وجل في الذين يتوفون من الطاعون، فيقول الشهداء: إخواننا قتلوا كما قتلنا، ويقول المتوفون علىٰ فرشهم: إخواننا ماتوا علىٰ فرشهم كما متنا علىٰ فرشنا، فيقول ربنا عز وجل: انظروا إلىٰ جراحهم، فإن أشبهت جراحهم جراح المقتولين، فإنهم منهم ومعهم، فإذا جراحهم قد أشبهت جراحهم**»[٣].

وهذا بيان من رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم أشد وضوحًا؛ وذلك لأنه يُوَضِّح العلة التي من أجلها نُزِّل المطعون منزلة الشهيد، وهي علة لا يشاركه فيها المصابون بالأوبئة الأخرىٰ.

فإذا تحقق بيان رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم لمعنىٰ الطاعون، وأنه عَلَمٌ علىٰ مرضٍ مخصوص، فلا سبيل إلىٰ القول بدخول الوباء في أحكام الطاعون إلا من طريق القياس، وفي مسألتنا هذه خاصة لا يصح القياس، وقول النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «**إن المدينة لا**

---

(١) سيأتي.

(٢) أخرجه أحمد (٢٥١١٨)، وأبو يعلىٰ في المسند (٤٦٦٤)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (١٦٣٨).

(٣) أخرجه أحمد (١٧١٥٩)، والنسائي (٣١٦٤)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٨٢٤٦).

يدخلها الطاعون» خبر عن حالٍ من أحوال ما يُستقبل من الزمان، والقياس لا يصح في الأخبار.

كما أن القياس هو إلحاق فرع بأصل لاتفاقهما في علة الحكم، فإذا ثبت أن الطاعون مرض ذو صفات خاصة أخبر بها النبي صلىٰ الله عليه وسلم، امتنع قياس غيره عليه إلا ما كان في مثل صفاته من التقرح وسيلان الدم، ومعلوم أنه لا يشارك الطاعون في ذلك سوىٰ القليل من الأوبئة.

وقد أيَّد الطب الحديث اختلافَ الطاعون عن سواه من الأوبئة؛ حيث عرَّفت منظمة الصحة العالمية الطاعون بأنه: مرض تسبّبه بكتيريا حيوانية المنشأ تدعىٰ اليرسنية الطاعونية، وينتقل الطاعون عن طريق لدغ البراغيث المصابة أو بالملامسة أو بالرذاذ الخارج من الجهاز التنفسي للمصاب بالطاعون الرئوي.

وتجعل منظمة الصحة العالمية للطاعون ثلاثة أشكال رئيسة:

منها: الطاعون العقدي (الدملي أو الدبلي)، وهو ينجم عن لدغة برغوث مصاب بعدوىٰ المرض، وتظهر أعراضه في الجلد بظهور انتفاخات وأورام وقروح، وغالبًا ما تكون تحت الإبطين وأعلىٰ الفخذ وخلف الأذنين والرقبة، وهذا النوع هو الأشهر، وهو المتعارف عليه قديمًا.

والثاني: الطاعون الدموي: تلوث الدم، وهو ينتج عن عدم علاج الطاعون الدبلي، حيث تنتشر العدوىٰ في الدم، وينخر الأنسجة، ويحول لونها إلىٰ الأسود، وتظهر القروح والأورام(١).

وهذان الشكلان المذكوران متوافقان مع المسلك الثاني في التعريف بالطاعون.

---

(١) انظر: الموقع الرسمي لمنظمة الصحة العالمية:

https://www.who.int/features/qa/plague/ar/

وأما الشكل الثالث فهو: الطاعون الرئوي، ويصيب الجهاز التنفسي، وهو مشترك مع الفيروسات من حيث النتيجة وهي الإصابة في الرئة، إلا أنهما مختلفان في الأنواع، فالبكتريا عالم كبير، منها النافعة التي تفرز الفيتامينات، ومنها الضارة، ومنها ما تسبب أمراضًا خفيفة، ومنها ما تسبب أمراضًا خطيرة؛ كالطاعون(١).

رابعًا: الفرق بين الطاعون والوباء:

وبهذا التعريف الذي رجحناه وبنينا ترجيحنا إياه علىٰ حديث رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم ثم علىٰ التعريف العلمي يتبين أن الطاعون مرض مخصوص بأعراض معينة، وليس كل وباء معدٍ يعدُّ طاعونًا إلا بالقياس أو المجاز(٢).

قال ابن القيم رحمه الله: "والتحقيق أن بين الوباء والطاعون عمومًا وخصوصًا، فكل طاعون وباء، وليس كل وباء طاعونًا، وكذلك الأمراض العامة أعمّ من الطاعون، فإنه واحد منها، والطواعين خراجات وقروح وأورام رديئة حادثة في المواضع المتقدم ذكرها"(٣).

وعليه نقول: إن كورونا وباء وليس طاعونًا؛ لأنه لا ينطبق عليه وصف الطاعون المراد في النصوص الشرعية، كما بيَّنه العلماء، بل هو وباء من الأوبئة التي تصيب الناس في الحرمين الشريفين وفي غيرهما من المدن والبلدان.

وقد ذكر الحافظ ابن حجر ما يبيّن أن الوباء أعم من الطاعون باستدلاله بالأحاديث التي ورد فيها وقوع الوباء في عهد النبوة والصحابة في المدينة، وقد ذكرنا ذلك، وقال بعدها: "كل ذلك يدل علىٰ أن الوباء كان موجودًا بالمدينة، وقد صرح الحديث الأول بأن

---

(١) انظر: لمعرفة الفرق بين العدوىٰ هل هي بكتيرية أم فيروسية:

https://cutt.us/٩fixD

(٢) انظر: إكمال المعلم (٧/ ١٣٢)، فتح الباري (١٠/ ١٨٠).

(٣) انظر: زاد المعاد (٤/ ٣٦).

الطاعون لا يدخلها، فدل علىٰ أن الوباء غير الطاعون، وأن من أطلق علىٰ كل وباء طاعونًا فبطريق المجاز"(١).

خامسًا: هل هناك ما يدل علىٰ احتمالية دخول الطاعون إلىٰ المدينة؟

سبق معنا في رواية البخاري عن أنس بن مالك عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال: «**المدينة يأتيها الدجال، فيجد الملائكة يحرسونها، فلا يقربها الدجال ولا الطاعون إن شاء الله**»(٢).

في هذا الحديث زيادة مهمة متعلقة بهذا الموضوع، وهي الاستثناء في قوله: «**إِنْ شَاءَ اللهُ**».

ومقتضىٰ دلالة هذا الاستثناء أن أمر دخول الطاعون إلىٰ المدينة معلق بمشيئة الله، جاء في مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: "ومقتضاه جواز دخول الطاعون المدينة"(٣).

وقد اختلف العلماء في هذا الاستثناء علىٰ ماذا يعود: هل الطاعون لوحده، أم علىٰ الدجال والطاعون معا؟

وقيل: هذا الاستثناء محتمل للتعليق بمشيئة الله.

وقيل: محتمل للتبرك، ورجح ابن حجر هذا الاحتمال وقال: وهو أولىٰ.

وقيل: إنه يتعلق بالطاعون فقط دون المسيح الدجال، قال محمد أنور الكشميري الهندي (ت ١٣٥٣هـ): "كلمة الاستثناء تتعلق بالطاعون فقط، لا بالدجال، فإنَّ الشقي الدجال لم يدخلها، ولن يدخلَ حتىٰ يلجَ الجملُ في سَمِّ الخِيَاط، فإن اطلعتَ في لفظ علىٰ

(١) فتح الباري (١٠/ ١٨١).

(٢) أخرجه البخاري (٧١٣٤).

(٣) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٥٣٩).

كلمة الاستثناء مع عدم دخول الدَّجال أيضًا، فاعدده من تقديم الرواة وتأخيرهم، وهي بالحقيقة بالطاعون"[١].

وقد ردّ ابن حجر علىٰ من قرر هذا المعنىٰ من العلماء فقال: "وفيه نظر، وحديث محجن بن الأدرع: «**ولا يدخلها الدجال إن شاء الله**» يؤيد أنه لكل منهما"[٢].

وأقل ما يمكن أن نستفيده من الاستثناء في الحديث: أن حماية المدينة من الطاعون أمر أغلبي وليس كلّيًّا.

وبهذا الإيضاح يتبين لنا أمور، منها:

- أن مَن توهموا انطباق حديث الطاعون علىٰ وباء كورونا لم يصيبوا بدلالة الحديث وبدلالة الواقع؛ إذ إن الواقع إصابة العديد من سكان المدينة بهذا الوباء.

- أن ما حدث من إجراءات وقائية من عزل وتعقيم للمدينة وللمسجد والروضة المباركة عمل صحيح، لا ينافي التوكل، ولا ينافي الإيمان ببركة المدينة وحفظ الله تعالىٰ لها، فهو كإماطة الأذىٰ إذا حصل في طرقاتها وبيوتاتها.

- أن من استخدموا هذا الوباء ووقوعه في أهل المدينة وسيلةً للطعن في السنة النبوية أو مصادرها ليس لهم حظ ولا حجة هنا.

والحمد لله رب العالمين.

---

(١) فيض الباري (٣/ ٣١٦).

(٢) انظر: فتح الباري (١٣/ ١٠٥).